

أحوال السجون والسجناء في العراق على عهد ولاية الحجاج

(رجب 75 هـ / تشرين أول 694 م - رمضان 95 هـ / حزيران 714 م)

أ.م.د. حماد فرحان حمادي

جامعة الأنبار – كلية التربية للبنات

قسم التاريخ

الخلاصة

الحجاج بن يوسف الثقفي من أبرز رجالات ثقيف الذين لعبوا دوراً بارزاً في التاريخ العربي الإسلامي بوجه عام وتاريخ الدولة الأموية بوجه خاص ، وكان لكفاءته وإخلاصه النادر وإيمانه المطلق بوحدة الدولة والحفاظ على مصالحها الأثر الكبير عند إثنين من أعظم خلفاء بني أمية هما عبد الملك بن مروان وإبنة الوليد إذ عهدا إليه الاضطلاع بأخطر الأعباء والمهمّات والمناصب في الجناح الشرقي للدولة العربية الإسلامية . وكان لطبيعة الظروف الاستثنائية التي سادت العراق خاصة والمشرق عامة إبان تسلمه مقاليد الحكم في ذلك الاقليم ، وما واكب هذه الظروف من أخطار حقيقية كادت تعصف بالدولة وتقضي عليها الأثر الكبير في سياسة الحجاج الذي إضطره الى تبني سياسة العنف والشدة لمواجهة تلك الظروف والأخطار .

يعدّ الحبس من بين العقوبات المعمول بها ضد بعض المخالفين والجناة والجانحين بالإضافة الى عقوبات أشد بينها الجلد والتعذيب كوسيلة لحمل المتهمين على الاعتراف بالتهمة الموجهة إليهم واستيفاء الأموال والحفاظ منهم (1) وأخيراً عقوبة القتل للخارجين على الدولة أولئك الذين يصرون على المجاهرة بموقفهم المعادي منها والنيل من ولايتها وخليفتها عندما يمثلون أمام المحاكمة كما كان يفعل كثير من الخوارج المتعصبين . ويلاحظ قبل التعرّض للسجن والسجناء في هذا العصر أنّ العقوبات آنذاك إمتازت بالشدة التي تصل أحياناً الى حدّ القسوة ، ويبدو أن الفوضى التي سادت العراق قبل تولي الحجاج له وتعودّ الناس على المخالفة والتمرد جرّاً عدداً غير قليل منهم على الخروج على الدولة أو عصيان أوامرها وهو أمر ينسجم على كلّ حال مع طبيعة العنصر العربي بصفة خاصة الذي لم تكن تغلغت في نفسيته بعد ظاهرة الانضباط في نطاق الدولة والتقيّد بطاعة أنظمتها وقوانينها. ولا بدّ من الإشارة إقراراً للحقيقة إنّ فرض هذه العقوبات الشديدة قد سبقه العديد من بيانات التحذير والأنداز والوعيد التي ترددت كثيراً في خطب الحجاج ورسائله وأقواله ومنها قوله المشهور (الانتقام يعقب العفو ، والإنذار لا بقية معه) (2) .

وتحدثنا المصادر أنّ السجناء كانوا يودعون في سجنين أحدهما للرجال في مدينة واسط ويدعى (الديماس)، والآخر للنساء في مدينة البصرة ويدعى (قصر المسيرين) ، ومن الصعب إعطاء فكرة واضحة عن سجن الديماس على عهد الحجاج لأنّ معظم المصادر التي أتت على ذكره تعمّدت إعطاء صورة مشوهة عنه حتى تعطي دلائل جديدة على ظلم الحجاج وقسوته ، فهي تصف سجن الديماس بأنه كان بلا سقف ولا ظل صيفاً وشتاءً (3) ، ولا يتناسب حجمه مع عدد السجناء الكثيرين وإنه لا يحتوي على مرافق عامّة كالمراحيض (4) وهو أمرٌ يبعث على الشك لأنّ مثل هذا الوضع من شأنه أن ينشر الأوبئة والأمراض الفتاكة لا بين السجناء وحسب بل وفي مدينة واسط نفسها التي كان الحجاج يحرص كلّ الحرص على نظافتها ويحبس كلّ من يتغوّط أو يبول في شوارعها وأحيائها (5) .

ومما يزيد في هذا الشك أنّ سجن الديماس هذا كان يضمّ عدداً غير قليل من الرجال النابهين أمثال يزيد بن المهلب ، ومالك بن أسماء ، وسفيان بن الأبرد الكلبى ، ومسمع بن مالك، وغيرهم. ولا يُعقل ان يبقى هؤلاء طوال مدة حبسهم في سجن الديماس الذي ليس له سقف يقي من البرد والمطر ولا ظل يقي من هجير الحر . وهذا اليعقوبي في تاريخه يصف حالة يزيد بن المهلب داخل سجن الحجاج بما يشبه الاعتقال الأحترازي رغم تعرّضه للتعذيب ليفي بالأموال المطلوبة منه ، ويذكر أنّ التجار والشعراء والناس كانوا يترددون عليه داخل السجن ممّا سهّل عملية هربه (6) .

ويبدو أنّ السجن كان يضمّ عدداً كبيراً من السجناء خاصة بعد سلسلة الثورات الفاشلة التي شهدها العراق وإعتقال الكثيرين ممّن إشتراكوا فيها ، وهذا ما جعل السجن في تلك الأوقات يضيق على نزلائه حتى قيل أنّه لم يكن لكلّ سجين مقعد إلا قدر ما يمدّ رجله (7) ، وكان كلّ إثنين يربطان بسلسلة ليصعب عليهما الهرب .

أما طعام السجناء فتجمع معظم المصادر على أنّه كان رديئاً للغاية إذ كان يتألف من دقيق الشعير مخلوطاً بالرماد ، فيذكر المدائني أنّ سجناء الديماس لم يكن لهم أدم إلا الملح وخبز الشعير ، وإنّ الماء كان يلقي فيه الملح أيضاً (8) . ويحتمل أن يكون هذا هو طعام عامة السجناء، كما وردت أيضاً إشارات تدلّ على أنّ كبار المسجونين كان

يسمح لهم بتناول طعام خاص كما كان الحال بالنسبة ليزيد بن المهلب وأخته (9). وتتضارب الروايات حول الوضع الصحي للسجناء فمعظمها يشير إلى أن المسجونين تغيرت وجوههم وألوانهم نتيجة لأوضاعهم السيئة وطعامهم الرديء (10).

إلا أن البلاذري أورد رواية يستفاد منها أن بعض السجناء زاد وزنهم داخل السجن من قلة الحركة إذ تقول الرواية: أن الحجاج سأل الغضبان بن القبعثري عندما كان يتفقد المحبوسين: (ما أسمنك؟ فقال: القيد والدعة ومن كان في ضيافة الأمير فقد سمن!!) (11).

أما سجن النساء فكان بقصر عبد الرحمن بن زياد بن أبيه في البصرة، هو قصر داخل قصر (12) وسمي قصر المسيرين لأن الحجاج (سير عيال من خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث إليه فحبسهم فيه) (13). وكان إذا قتل رجلاً وتزوجت امرأته كف عنها، وإذا لم تتزوج حبسها في هذا القصر (14). وهذا يؤكد أن الحجاج كان يفصل بين السجناء والسجينات ولا يضعهم جميعاً في مكان واحد كما ذهب الراغب الأصفهاني (15).

أما عدد المسجونين في عهد الحجاج فالأختلاف كبير بين الرواة والأخباريين في تقديره وإن كانوا جميعاً يجمعون على أن هذا العدد يصل إلى عشرات الألوف!!

فالرواية البصري المحدث هشام بن حسان الأزدي (توفي 147 هجري) يقدر سجناء الحجاج بثلاثة وثلاثين ألفاً (16) وهو أقل رقم تذكره الروايات. ويرفع المدائني وعوانة بن الحكم هذا الرقم ليصل إلى ستين ألف محبوس (17)!! ويزيده الهيثم بن عدي وابن الأعرابي المؤرخ والمحدث البصري (توفي 340 هجري) إلى ثمانين ألفاً بينهم ثلاثون ألف امرأة (18)!! كما يضاعفه الراغب الأصفهاني ليصل إلى مائة وأربعة وثلاثين ألفاً بينهم عشرون ألف امرأة (19)، وضاعف الدميري صاحب كتاب حياة الحيوان الكبرى هذا العدد ليصل إلى ثلاثمائة ألف سجين ما بين رجل وامرأة (20)، وذهب آخرون إلى أن عدد الذين ماتوا منهم في الحبس بلغ عشرين ألف سجين (21).

وضوعف هذا العدد حتى وصل إلى ثمانين ألفاً منهم ثلاثون ألف امرأة (22).!! وقيل مثل ذلك في ضحايا الحجاج، فالقزويني مثلاً يعجز عن تقدير عدد الضحايا ويقول

أن قتلاه بالسيف لا تُعد ولا تُحصى (23). في حين يقدرهم رواة آخرون ما بين مائة ألف ومائة وعشرين ألفاً، عدا من قتل في البعوث والمعارك والحملات (24).

وهذه الأعداد سواء ما يتعلق منها بعدد السجناء وموتى السجن أو بعدد ضحاياه ومن لقي حتفه على يديه لا يمكن للباحث أن يصدقها لعدة أسباب منها أن سجنى الديماس وقصر المسيرين وهما السجنان الوحيدان في عهد الحجاج اللذان أشارت إليهما المصادر مضافاً إليهما سجن الأستخراج إذ لا يمكن بأي حال مهما بلغ إتساعهما أن يستوعبا هذا العدد فضلاً عن الموارد الضخمة التي يحتاج إليها الحجاج للإنفاق عليهم، ومنها هذا الأثراد المستمر في الأرقام كلما بعدنا عن عهد الحجاج (25)، مما يدل على إنها وضعت عمداً للإساءة إلى الرجل وإظهار مخالفته بمظهر الشهداء خاصة وإن بعضهم كان من القراء والمثدين.

يضاف الى ذلك أنّ مسألة المبالغة في الأرقام والتقديرات أمرٌ شائعٌ ومعروف في كثير من المصادر العربيّة (26). ممّا جعل العلامة ابن خلدون ينبّه الى ذلك في مقدمته إذ يقول: (وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسّرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لإعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سمياً... ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات ، إذ هي مظنة الكذب ومطيّة الهذر ، ولا بدّ من ردّها الى الأصول وعرضها على القواعد) (27). ويضيف الى ذلك قائلاً : (وقد نجد الكافة من اهل العصر إذا أفاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم أو قريباً منه ، وتفاوضوا في الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصراري ، أو أخذوا في إحصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الأغنياء الموسرين، توغّلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس الأعراب، فإذا إستكشفت أصحاب الدواوين عن عساكرهم وإستنبطت أموال أهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم ، وإستجلبت عوائد المترفين في نفقاتهم ، لم تجد معشار ما يعدّونه ، وما ذلك إلا لولوع النفس بالغرائب ، وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد ، حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد ، ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا عدالة ولا يرجعها إلى بحث وتفتيش ، فيرسل عنانه ويسيم في مراتع الكذب لسانه ، ويتخذ آيات الله هزواً ، يشتري بها لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله ، وحسبك بها صفقة خاسرة (28).

وعلى الرغم من أنّ ابن خلدون قطع قول كلّ خطيب في هذا الشأن فإنّ ضخامة الأرقام التي قيلت في سجناء الحجّاج وضحاياه تدلّ من غير شك على أنّ العدد في الحالتين كبير لكنّه مع ذلك يظلّ كما قال ابن خلدون دون معشار ما أحصوه وعدّوه ، خاصة عندما هدم الخليفة سليمان بن عبد الملك سجن الديماس وأخرج المحبوسين منه ومن سجن قصر المسيرين (29). نكايته بالحجّاج الذي كان يحقد عليه.

وفضلاً عمّا تقدّم كان هناك سجن دار الأستخراج وهو مكان يودع فيه الموظّفون الذين يختلسون أموال الجبايات ولا يؤدونها للدولة (30)، وأودع فيها كذلك الدهاقين الذين يقصّرون في ألجباية المقرّرة عليهم ، كما صودرت فيها أموال الخارجين على الدولة أو الذين يشتبه بمساعدتهم الثائرين. وقد وُجِدَ هذا الجهاز في عهد زياد بن أبيه (31). ويبدو أنّ أهميته زادت منذ ذلك الوقت لكثرة التلاعب بأموال الدولة والتقصير في جبايتها، وكانت دار الأستخراج تتبع في عهد الحجّاج لصاحب الشرطة (32)، الذي يستخدم أعوانه في حمل المختلسين على الاعتراف بالأموال التي إختلسوها ، والتنازل عمّا لديهم من أموال منقولة وغير منقولة للتعويض عن الأموال المستحقّة عليهم ، وأستعملت لتحقيق هذا الهدف وسائل تميّزت بالشدّة والعنف ، وأستمرّ هذا الجهاز حتى زمن الدولة العباسيّة إذ تحوّل الى ديوان كبير عرف بإسم ديوان المصادرات (33). ومن بين الذين صودرت أموالهم في عهد الحجّاج الصحابي المعروف أنس بن مالك لإشتراك ابنه عبد الله في ثورة ابن الجارود ضدّ الحجّاج (34).

وتجمع المصادر على شدة الأجرآت المثبعة في دار الأستخراج إذ كان يشرف على تنفيذها رجل يعرف بصاحب العذاب ، ووصفت هذه المصادر طرق التعذيب التي كانت تشتمل على شدّ القصب على الجسم وسحبه حتى ينسلخ الجلد ، ثم يُصبّ على موضع السلخ الخل والملح ، وهي مواد كاوية لموضع الجروح إذ تحدث ألماً شديداً ، كما كان يوضع الدهق (35) على الصدر زيادة في التعذيب، ونسمع عن أشخاص لاقوا حتفهم من هذا العذاب . (36) .

وإذا كنا نستنكر هذه الإجراءات في كلّ زمان ومكان ولا نبررها بأيّ حجة على أساس أنها منافية لروح الإسلام وعدله قبل أيّ اعتبار آخر ، فإن تقرير الحقيقة كاملة تجعلنا نقف على ما كان يقوله رجال الإدارة الأمويون الذين لجأوا الى هذا الأسلوب ، فقد ذكر أنّ قسماً من الناس في ذلك العصر كان يرفض أداء ماعليه من حقوق للدولة إلا إذا أستعملت القوة معه لأداء تلك الحقوق ، وهذا ما أكده عمّال الخليفة عمر بن عبد العزيز في العراق وخراسان لا عمّال الحجّاج . فقد كتب اليه عدي بن أرطاة عامله على البصرة يقول : (أمّا بعد فإن أناساً قبلنا لا يؤدون ما عليهم من الخراج حتى يمستهم شئ من العذاب) (37) .

كما كتب اليه الجراح بن عبد الله الحكمي عامله على خراسان بمثل ذلك إذ قال: (إني قدمت خراسان فوجدت قوماً قد أبطرتهم الفتنة ، فهم ينزون فيها نزواً ، أحب الأمور اليهم أن تعود ليمنعوا حقّ الله عليهم فليس يكفهم إلا السيف والسوط ، وكرهت الإقدام على ذلك إلا بإذنك) (38).

وقد رفض الخليفة عمر بن عبد العزيز هذا الأسلوب وحذّر عامليه من مغبة الإقدام عليه وكتب إليه يقول: (أمّا بعد ، فالعجب كلّ العجب من إستئذائك إياي في عذاب البشر ، كأني جئة لك من عذاب الله ، إذا أتاك كتابي هذا فمن أعطاك ما قبله عفواً وإلا فأحلفه ، فوالله لأن يلقوا الله بخياناتهم أحبّ إليّ من أن ألقاه بعذابهم) (39). فانتهج الخليفة عمر بن عبد العزيز بذلك أسلوباً يختلف عن أسلوب الحجّاج الذي إنتقى مع رأي عمّال الخليفة المذكور في إشهار السيف والسوط كسياسة للناس وحملهم بها على الجادة وهو على كلّ حال تميّز به الحجّاج بن يوسف وغدا في التاريخ علماً عليه حتى كادت هذه الشهرة تطغى على الأعمال المفيدة الكثيرة التي قام بها خلال ولايته على العراق .

المصادر

- (1) ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 376 هـ) ، عيون الأخبار ، (القاهرة -1963) ، م 1 ص 55 / صالح أحمد العلي : الدكتور ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري ، (طبعة 2 بيروت – 1969) ، ص 228 .
- (2) الراغب الأصفهاني: ابو القاسم حسين بن محمد (ت 502 هـ)،محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، (بيروت – 1961)، ج 3 ص151.
- (3) ابن سعد : ابو عبد الله محمد (ت230 هـ) ، الطبقات الكبرى ، (بيروت – 1960)، ج 6 ص285./ محاضرات الأدباء ، ج 3 ص 195/ الشعراني: ابو محمد، عبد الوهاب بن أحمد بن علي (ت973 هـ)،لوائح الأنوار في طبقات الأخيار،(القاهرة) ، ج 1 ص 41/ ابن نباتة: محمد بن محمد بن الحسن الجذامي (ت768 هـ)، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ،(القاهرة-1964) ،ص180.
- (4) ابن نباتة، سرح العيون ، ص180.
- (5) ينظر البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت279 هـ)، أنساب الاشراف، (مصور دار الكتب المصريّة رقم 1103)،م 12 ورقة 1207 ، 1208 .
- (6) اليعقوبي: أحمد بن يعقوب بن وهب ، تاريخ اليعقوبي ،تحقيق عبد الامير المهنا ،(طبع ونشر مؤسسة الأعلمي – بيروت – لبنان) ، ج 2 ص 288 .
- (7) البلاذري ، أنساب ،م 12 ورقة 46 ، 1264 .
- (8) نفس المصدر وينظر أيضاً ، ابن سعد ، الطبقات ، ج 6 ، ص 285 .
- (9) تاريخ اليعقوبي ، ج 2 ص 288 .
- (10) ينظر الأبشيهي : ابو الفتوح شهاب الدين محمد بن احمد)
- (11) ت852 هـ) ،المستطرف في كل فن مستظرف ، مراجعة عبد العزيز سيّد الاهل – القاهرة ، مطبعة المشهد الحسيني ، جزءان) ، ج 2 ص 66 .
- (12) البلاذري ، أنساب ، م 7 ، ورقة 11 .
- (13) البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد ،(القاهرة – 1969) ، ص 436 .
- (14) نفس المصدر والصفحة .
- (15) البلاذري ، أنساب ، م 7 ، ورقة 54 .
- (16) الراغب الاصفهاني ، محاضرات الأدباء ، ج 3 ص195 .
- (17) ابن بدران : عبد القادر بن أحمد بن مصطفى الدمشقي (ت 1346 هـ) ،تهذيب تاريخ ابن عساكر ، (دمشق – 1329 هـ ، 7 أجزاء) ، ج 4 ص 80 / ابن عبد ربّه: ابو عمر ، أحمد بن محمد الأندلسي (ت328 هـ) ،العقد الفريد ، (القاهرة- 1967) ، ج 5 ص 46/ ياقوت الحموي: ابو شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي (ت626 هـ) ، معجم البلدان ،(بيروت- 1955)، ج 5 ص 349 / القزويني: زكريا بن محمد بن محمود (ت682 هـ) ، آثار البلاد وأخبار العباد ، (بيروت-1960) ، ص 100 .
- (18) البلاذري ، أنساب ، م 12 ورقة 1234 .

- (19) تهذيب تاريخ ابن عساكر ، ج 4 ص 80 / الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748 هـ) ، تاريخ الأسلام وطبقات المشاهير والاعلام ، (القاهرة-1368 هـ ، 4 أجزاء) ، ج 3 ص 354 .
- (20) الراغب الأصفهاني ، محاضرات الأدباء ، ج 3 ص 195 .
- (21) الدميري : كمال الدين محمد بن موسى، (ت 808 هـ) حياة الحيوان الكبرى ، تهذيب وتصنيف أسعد الفارس ، (دمشق-1992) ، ج 1 ص 67 .
- (22) ابن نباتة ، سرح العيون ، ص 180 .
- (23) الراغب الأصفهاني ، محاضرات الأدباء ، ج 1 ص 182 .
- (24) القزويني ، آثار البلاد ، ص 100 .
- (25) ينظر : محاضرات الأدباء ، ج 3 ص 195 / العقد الفريد ، ج 5 ص 46 / تهذيب تاريخ ابن عساكر ، ج 4 ص 80 / معجم البلدان ، ج 5 ص 349 / سرح العيون ، ص 180 .
- (26) Perier , J : Vie d' al – Hadjdjadj Ibn Yousof d' apres les Sources Arabes , Paris 1965.P315.
- (27) ينظر: مقال حبيب زيات ، المجازفة بالأرقام في التاريخ ، مجلة المشرق ، م 31 ع 3 ص 161 .
- (28) ابن خلدون: ابو زيد عبد الرحمن بن محمد ، (ت 808 هـ) ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، (الطبعة 3 – بيروت- 1967 ، 7 مجلدات)، م 1 ص 13 .
- (29) ابن خلدون ، نفس المصدر ، م 1 ص 16 .
- (30) الجاحظ: ابو عثمان عمرو بن بحر ،(ت 255 هـ) ، آثار الجاحظ ،(جمع عمر ابو النصر ، بيروت- 1969) ، ص 222 / المقدسي: مطهر بن طاهر (ت 355 هـ) ، البدء والتاريخ ، (مصورّ طبعة باريس – 1899) ، ج 6 ص 41 .
- (31) صالح أحمد العلي ، التنظيمات الاجتماعيّة ، ص 228 .
- (32) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، م 1 ص 55 .
- (33) البلاذري ، أنساب ، م 7 ، ورقة 95 .
- (34) صبحي الصالح : الدكتور ،النظم الاسلاميّة ، (طبعة 2 – بيروت 1968) ، ص 316 .
- (35) البلاذري ، أنساب ، م 7 ، ورقة 11 .
- (36) الدهق : نوع من العذاب ويتكوّن من خشبتين يضيق بهما على ساق المذنبين ، ينظر: ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي (ت 711 هـ)لسان العرب ، (مصورّ طبعة بولاق – القاهرة) ، ج 11 ص 396 .